قضايا تاريخية

الدكتور حماة الله ولد السالم

تاريخ موريتانيا

العناصر الأساسية

9

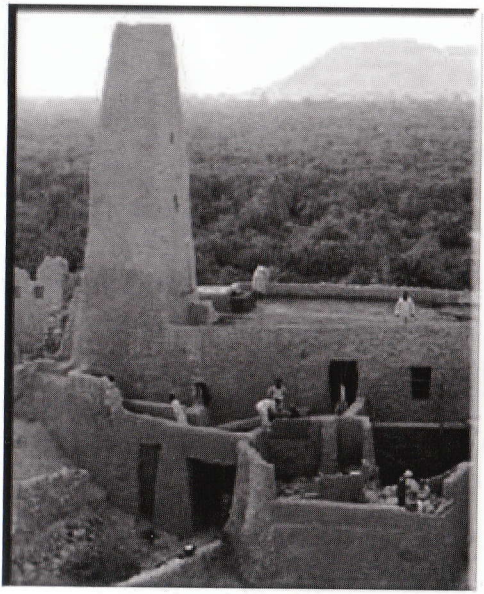

منشورات الزمن

2007

تاريخ مُوريتَانْيَا

العناصر الأساسية

الدكتور حماه الله ولد السالم

جميع الحقوق محفوظة للزمن

منشورات الزمن

قضايا تاريخية العدد 9

المدير : عبد الكبير العلوي الإسماعيلي

المشرف : إبراهيم القادري بوتشيش

الإخراج التقني : خديجة فارس

الإيداع القانوني: 1670 / 2007

ردمك: 0 - 77 - 408 - 9954

طبع: مطبعة النجاح الجديدة - الدارالبيضاء

توزيع: سبريس

الإدارة والتحرير: 153، شارع سيدي محمد بن عبدالله رقم 7 - العكاري - الرباط

الهاتف و الفاكس: 00 212 37 29 98 44

البريد الإلكتروني: mazzaman@menara.ma / az_zaman@hotmail.com

كل الآراء والأفكار الواردة في "إصدارات الزمن" لا تعبر بالضرورة عن رأي "الزمن"

تقديم

هذه دراسة مختصرة، تتناول الملامح الأساسية من تاريخ موريتانيا العام، منذ العصر القديم إلى بداية الغزو الفرنسي على البلاد. وهي مقصورة، لأسباب ذاتية ومنهجية، على تاريخ البيضان "عرب الصحراء الكبرى"، دون غيرهم من سكان البلاد اليوم من المجموعات السودانية "الزنجية": الهالبُولار، السوننكى.. والذين ظلت صلتهم وثيقة بتاريخ شبه المنطقة وأسسوا دولا مهمة وقادوا حركات إصلاح كبرى، أثرت كلها على بلاد البيضان تأثيرا عظيما.

أقدم تلك الكيانات مملكة غانة وثانية عواصمها هي "قمب صالح" الواقعة في جنوب شرق موريتانيا حاليا، واستمرت إلى القرن 8هـ تابعة لمالي، وكان زحف الفاتح الفلاني تانكلا وابنه كولى عظيم الأثر على منعطف نهر السنيغال، حيث أخضع السينغامبيا ونشر اللهجة الفلاّنيّة، فتحولت بعض القبائل إلى التحدث بها، فنتج عن المزيج ما يعرف بشعب "الهالبولار" ومعناه: الناطقون باللهجة البولارية "الفلانيّة"، وكان ذلك التطور مشاكلا لدور قبائل

بني حسّان العربية في فرض سلطانها ولهجتها على السكان من صنهاجة. وأحدث تلك الكيانات دولة الحاج عمر الفوتي تـ1864م التي هزت رتابة الوحدات السياسية والدينية والبشرية في عموم حوضي نهر السنيغال ونهر النيجر، وكانت نتائجها بالغة المدى على صعُد متعددة، سلبا وإيجابا.

ونقدم هذه الدراسة سدا لبعض النقص الملحوظ في دراسات التاريخ الموريتاني الموجودة، بينما المتاح في هذا الحقل إما أطروحات جامعية متخصصة، أو أعمال لاتمتلك من التاريخية إلا الاسم وهي في أحسن الأحوال، بالنسبة لبعضها، مفتقرة للمنهجية الحديثة وجمع ساذج لشتات الروايات والأنساب والأسماء المكتوبة لغايات آنية وبواعث ضيقة.. وهي كذلك مفعمة بالأحكام الخاطئة، والبعد عن الأمانة العلمية.

وقد نأينا بأنفسنا عن الخلاصات السهلة والاستنتاجات المتسرعة، مركزين على التحولات العميقة في حياة الناس من هجرات، وصراعات كبرى، وتحولات بنيوية في الاجتماع، والسياسة، والفكر والاقتصاد.

ولم نفصل في بعض الأحداث المحلية، لكي لا نثقل على القارئ الذي لا يعرف الكثير عن تاريخ البلاد، بينما يهمه في المقام الأول معرفة مسار الأحداث الكبرى التي شكلت المجتمع سياسيا،

وفكريا، ومجتمعيا وذهنيا، وهي التحولات الأساسية: الفتح الإسلامي، قيام **دولة المرابطين، الهجرة العربية "الحسّانية"، الحرب بين صنهاجة وبني حسّان**، ثم **دخول الاستعمار** الذي كان حدثا بارزا في الذاكرة لكنه لم يؤثر في البنية المجتمعية مطلقا، رغم بشاعة تصرفات الغزاة الفرنسيين إزاء السكان.

وهناك أحداث أخرى لم يكن لها تأثير في تاريخ البلاد لأنها لم تغير من حياة الناس، وإن بقيت في ذاكرتهم الجمعية، مثل: حملة جيش المنصور السعدي على دولة سنغاي، وسقوط عاصمتها الثقافية تنبكتو ذات الصلة الوثيقة بتاريخ البيضان الثقافي، لأن الحملة كانت بعيدة عن عمق البلاد وبنيتها الداخلية، وهو حال الحملة السعدية التي تمت قبل ذلك ومرت على طول الساحل الموريتاني حتى وصلت نهر السنيغال، ولكن السكان لا يعرفون اليوم عنها شيئا، لأنها انتهت بسلام، ورجعت، ولم تلق بأسا ولم تخلف ضررا، وهناك أيضا "حرب شرّ بَبّا" التي دارت في جنوب غرب البلاد نهاية القرن 17م، ولكنها كانت حدثا محدودا في الزمان والمكان، ولم تغير البنية المجتمعية ولا الحياتية للسكان، رغم قيمتها الرمزية لدى المجموعات القبلية الزاوية التي شاركت فيها، أما القبائل العربية المنتصرة في الحرب فلم تعرها أي اهتمام!

وستكون البدايات المدروسة من العصور القديمة الغامضة إلى دخول الإسلام في القرنين الأول والثاني الهجريين / السابع ولثامن الميلاديين، ثم التركيز على تاريخ دولة المرابطين بصحراء الملثمين (موريتانيا وأحوازها) ثم السعي إلى استجلاء الفترة الموالية التي لانكاد نعرف عنها شيئا وتمتد من بداية القرن السادي الهجري/ الثاني عشر الميلادي إلى القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، عهد انتشار قبائل بني حسان العربية، فنشأة المدن، فقيام الإمارات والرئاسات الحسّانية، فازدهار المجتمع الأهلي، فانهياره، وبداية السيبة مع تأزم الأوضاع بفعل الحصار الأوروبي للبلاد تمهيدا لاختراقها. وهي كلها محطات بارزة مهمة تكاد تصلح أساسا لتحقيب تاريخ البلاد.

تحقيب التاريخ الموريتاني

التّحقيبُ عملية معقدة يُراد بها تقسيم التاريخ العالمي إلى حقَب تبدأ بأحداث حاسمة وتنتهي بأخرى. وتكون أصعب في التاريخ الإقليمي والتواريخ المحلية.

يُقسّم التاريخ العالمي إلى حقب كبرى هي: التاريخ القديم ويبدأ من ظهور الكتابة وينتهي بسقوط روما، ويليه التاريخ الوسيط المنتهي بفتح القسطنطينية أو كشف أمريكا، وتليه مرحلة التاريخ الحديث ونهايته محددة بالثورة الفرنسية، ثم يأتي التاريخ المعاصر ونهايته مع الحرب العالمية الثانية، لتبدأ مرحلة مايسمى بنوع من التجوّز "التاريخ الراهن"، مع اختلاف بين المؤرخين في تلك التواريخ وجدلهم حول تلك البدايات والنهايات.

هذا التّحقيب مدرسي صرف، يُراد به تسهيل دراسة التاريخ، لأن نهر الأحداث، أي التجربة الإنسانية، لايمكن تقطيعه أو تغيير مجراه، فضلا عن أنه تحقيب وضعه مؤرخو أوروبا في الغرب المعاصر.

كما أن ذلك التّحقيب "العالمي" ليس مُلزما للحضارات كلها، لأن لها تحقيبها للتاريخ تبعا لتجربتها الخاصة ونظرتها للآخر. ولذلك لايمكن فرض التّحقيب "العالمي" على الحقبة الوسيطة الممتدة من ظهور الإسلام إلى سقوط بغداد، لأن الحضارة العربية ـ الإسلامية عرفت ازدهارا منقطع النظير في تلك الحقبة، في وقت كانت البلاد الأوروبية تعيش في ظل ماتُسمّيه "العصر الوسيط المظلم".

ينضاف إلى ذلك أن تحديد بدايات ونهايات العصور فيه من الاعتباط ما لايخفى، وما يطرحه الإختلاف البيّن في الاهتمام بالأحداث الفاصلة، لأن سقوط روما، رغم أهميته البالغة على الصعيد الأوروبي، فقد لايعني شيئا كبيرا بالنسبة للمسلمين.

رغم ذلك قد لا يختلف منطق التاريخين الإسلامي والأوروبي بشأن بعض الأحداث الكبرى التي أثّرت على مسار "التاريخ العالمي"، كتحديد بداية التاريخ الحديث بسقوط الأندلس أو باكتشاف أمريكا، لأن القرن الخامس عشر الميلادي كان بداية الانكفاء الحضاري للمسلمين وانطلاق النهضة الأوروبيّة، وقس على ذلك.

أما تحقيب "التاريخ الوطني" أي تاريخ بلاد بعينها أو إقليم محدد، كموريتانيا، أو غيرها من الأقطار، فهو أمر صعب لأنه يقتضي تحقيق التوازن بين الأحداث الكونية وتلك المحلية، وتحقيق الانسجام بين التحولات التي جرت في "الأطراف" وتلك التي تمت في "المركز".

ويمكن بشيء من التجوّز، تحقيب التاريخ الموريتاني بتقسيمه إلى العصور التالية:

1– تاريخ قديم: من الألف الثانية للميلاد حتى القرن السابع الميلادي، ويبدأ بظهور العربات التي جاء بها شعب الكرامانت، وشكلت فتحا في تاريخ الصحراء، وبداية للتواصل الفعلي بعالم إفريقيا الشمالية الروماني، ولذلك ظل سكان البلاد إلى اليوم يسمّون ذلك الشعب باسم "أغرمّان" أي: الرومان الصغار، تعبيرا عن علاقة الكرامانت بالرومان تجاريا وسياسيا. وينتهي بالفتح الإسلامي للصحراء في القرن السابع وتاليه.

2– تاريخ وسيط: ويبدأ من الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، وينتهي بسقوط تنبكتو سنة 1591م، ونُسمّيه "العصر الصنهاجي" وينقسم إلى: "العصر الصنهاجي الأول" ويبدأ من الفتح الإسلامي إلى قيام دولة المرابطين في القرن الخامس، وفيه عرفت قبائل الملثمين قيام دولتها وعاصمتها "أودغست" (في الحوض الغربي حاليا)، و"العصر الصنهاجي الثاني" ويبدأ بقيام الدولة المرابطية وينتهي بسقوط تنبكتو سنة 1591 الذي كان أثره قويا على أحوال الصحراء، بفعل انهيار المؤسسات الدينية والثقافية والاقتصادية شمال نهر النيجر، وهجرة العلماء غربا وتشتت مسالك القوافل غربا وشرقا، وصعود الإمارات الوثنية في

الجنوب تساوقا مع الحضور الأوروبي على السواحل. كما هزّ سقوط تنبكتو، أو بالأحرى انهيار دولة سنغاي، رتابة الوحدات السياسية والمجتمعية في الصحراء والسودان.

3– تاريخ حديث: ويمكن تسميته "العصر الحسّاني" لأنه عرف السيطرة النهائية لبني حسّان على شبه البلاد الحالية، ويبدأ بسقوط تنبكتو 1591 وينتهي بحصار "الحنيكات" الشهير سنة 1778م، بين عشائر إدوعيش الصنهاجية وقبائل بني حسّان العربية، وكانت نتائجه المباشرة قيام إمارة تكانت، ونتائجه البعيدة نهاية الصراع الطويل بين الإمارات اللمتونية والقبائل العربية والذي بدأ مع القرن الثامن (14م)، وأفضى إلى تشكل المجتمع على النحو الراهن.

4– تاريخ معاصر: ويبدأ بنهاية حصار "الحنيكات" سنة 1778م وينتهي بالسيطرة الاستعمارية سنة 1903م وما تلاها.

5– تاريخ راهن: هذا الإصطلاح جديد ويعني الفترة التي أعقبت الحرب العالمية أو نهاية الحرب الباردة. ويمكن أن تكون بدايته الفعلية في موريتانيا بقيام الدولة الوطنية سنة 1960م.

والحق أن تحقيب "التاريخ الوطني" لأي دولة، عملية صعبة وغير نهائية، لأنه يتأسس على خطاب الهوية، وهو نفسه محل جدل، ويخضع لسيرورة متواصلة، ولمراجعة، ونقاش دائمين.

وكان بالإمكان تحقيب تاريخ البلاد على نحو أكثر دقة، برصد التحولات الكبرى التي تمت في نحلة العيش ومحيطها الطبيعي، حيث يمكن تتبع دورات الإنتجاع على مدى قرون، ورصد التحول البنيوي الذي طرأ على مسارها منذ الفترة الوسيطة إلى الحديثة فالمعاصرة، وكذا حركة الهجرة والانتقال البشري من إقليم إلى آخر.

ويمكن القول إن مصادر العصر ماقبل التاريخ والتاريخ القديم هي –بالأساس– الشواهد الأثرية والمعطيات المستغلة من قبل الإختصاصات المساعدة مثل التاريخ الطبيعي وعلم آثار ما قبل التاريخ.

أما الفترتان الوسيطيتان فأهم المصادر المكتوبة عنهما هي كتابات الجغرافيين والرحالة العرب، وكذا نتائج البحوث الآثارية في الحواضر العتيقة مثل: كمبي صالح وآوداغست... الواقعتين في شرقي موريتانيا الحالية.

وتظل مصادرنا قليلة ومشغورة، بل صامتة أحيانا في الفترة الوسيطة الثانية من نهاية دولة المرابطين إلى القرن التاسع الهجري / الخامس الميلادي. لكن المصادر التنبكتية والولاتية والبرتغالية تعتبر من أهم المصادر في هذه الحقبة.

أما العصر الحديث والمعاصر فستبدأ فيه الوثيقة السياسية يأخذ دورها، لاسيما بالنسبة للإمارات والرئاسات الحَسّانيَّة، وكذا الوثيقة الأهلية التي تؤرخ للحياة الاقتصادية والاجتماعية في المدن

والبوادي، ومنها الحوليات التاريخية التي تذوخ لسنوات القحط والمجاعة ولحوادث الحروب وحياة الأعيان من أهل الشوكة ومن العلماء. ومن أهم المؤرخين في تلك العصور أحمد بن الحاج الرقادي الكنتي المتوفى سنة 1130هـ ولعله أول مؤرخ معروف في البلاد وكذا محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري المتوفى سنة 1271هـ، وكتاب الحوليات في المدن. وتبقى المصادر الفقهية، من فتاو ونوازل، مصدرا في غاية الأهمية عن تاريخ الحياة اليومية والتحولات البنيوية عبر القرون في الفكر، والاجتماع ونمط العيش.

البنيـة الإجتماعيـة:

ينقسم المجتمع الموريتاني إلى فئات اجتماعية لكل منها "وظيفتها" الخاصة:

1- حَسّـان: (=العـرب)، وهي الطبقـة العليـا في السلم الاجتماعي، وأعضاؤها هم أهل الشوكة، حياتهم تقوم على الغزو والحرب، ويعيشون من الغزو والمغارم التي يفرضونها على الأتباع والأغفار التي يأخذونها من قبائل الزوايا التي تقوم بتجارة القوافل. وينحدرون من أصول مختلفة أغلبها من أصل قبائل بني حسّان العربية التي جاءت مع الهجرة الهلالية، ودخلت موريتانيا منذ القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي على الأقل، والبعض الآخر من أصول قبائل صنهاجة التي ظلت مستقلة وذات نزعة حربية.

2- الزوايا : (الطلبة): الطبقة الثانية في السلم الاجتماعي، وهي قبائل مسالمة في الغالب، ذات نزعة علمية ودينية تتولى وظائف الإمامة، والقضاء، والافتياء، والتدريس وقافلة الحاج، وتقوم كذلك بنشاطات التجارة، وتنمية الأنعام وحفر الآبار. وأغلب هذه القبائل ينحدر من أصول قبائل المرابطين المعروفة، أما البعض الآخر فينحدر من عرب الأمصار الذين وفدوا إلى الصحراء في عهود مختلفة.

3- اللحمَةُ: (آزناكا)، الطبقة الثالثة، وأصل كلمة اللحمة من اللفظ "الاستلحام" الوارد في النص الخلدوني ويعني الدمج والإلحاق، وهي طبقة من المجموعات المغلوبة، وجلها من صنهاجة، وبعضها من عرب حسّان الذين أخضعهم بنو عمومتهم في المعارك. وعملها محصور في تنمية المواشي المملوكة للزوايا وحسّان.

4- الصنّاع: (المعلّمون): فئة تمتهن الحدادة ولا ترجع إلى أصل واحد، فمنها العربي والصنهاجي والسوداني وغيره. وهذه الفئة أكثر ارتباطا بالزوايا نظرا لدورهم التجاري والاقتصادي.

5- **الزّقّانُون:** (المُغَنّون) حرفتهم الموسيقى والغناء. وأصول بعضهم أندلسية، وأغلبهم من التوارق والسودان. ويرتبطون عضويا بطبقة أهل الشّوكَة (حسّان).

6- **الحراطين:** فئة تميل ألوانها إلى السمرة الداكنة أو السواد، وهي من مجتمع البيضان العربي والكثير منها كان من الموالي

او العتقاء. أصل هذا الإصطلاح من لفظة "أحَرضَان": الخلاسي، المهجّن من أب بربري وأم زنجية، وأسلافهم الحقيقيون هم سكان الواحات القديمة من البربر المختلطين بالزنوج، ومن شعب "أغرمّان" أي: الكرامانت "الجرمنت" الذين كانوا في ليبيا الرومانية وانتشروا في الصحراء نتيجة الضغط الروماني وسعيا إلى موارد الذهب! والباقي من الحراطين "الجدد" هم مجموعات زنجية تعرّبت وصارت من مجتمع البيضان العربي كغيرها من البربر المُتعرّبين.

7- العبيد: وهم مجموعات الرقيق الأسود التي انتقلت إلى الصحراء عبر تجارة القوافل، وتزايدت في عهد حروب الحاج عمر الفوتي ضد ممالك بامبرا الوثنية وغيرها من المجموعات السودانية في القرن 19م.

أولا: محدّدات أولية

المجال الذي سندرس بعض محطات تاريخه هو "موريتانيا قبل 1903" وهو نطاق يتجاوز الحدود السياسية للجمهورية الإسلامية الموريتانية الحالية التي رسمها الاستعمار، ليشمل الرقعة المسماة بلاد شنقيط. وهي المجال الذي كان مسرحا لعمليات الحركة المرابطية، والذي عرف أيضا حلول اللغة العربية فيه محل اللهجات البربرية منا القرن الهجري الثامن (القرن الميلادي الرابع عشر)، كما يُعتبر هذا المجال وحدة تاريخية لأنه عرف مؤثرات تاريخية واحدة، وهو أيضا

يعتبر وحدة بشرية لأن سكانه يتكلمون لغة عربية تسمى "الحسانية". وهي من أقرب اللهجات إلى اللغة العربية الفصحى.

ولذلك فإن المجال المدروس يشمل بالإضافة إلى موريتانيا مناطق أخرى مجاورة، تربطها بها وحدة اللغة، والعادات والتقاليد، والنسب والتاريخ، وهذه المناطق هي من الشمال (إقليم الساقية الحمراء ووادي الذهب وإقليم تيندوف) ومن الشرق (إقليم أزواد). وبذلك نتحرر من "الفضاء السياسي" وتصوراته المثيرة للجدل، لنتحرك في مجال ثقافي أكثر إجرائية لدراسة حياة الناس وتحولاتها في الزمان والمكان.

وقد عرف هذا النطاق بتسميات مختلفة أشهرها: "بلاد الملثمين" قديما و"بلاد شنقيط" حديثا، وكان انتشار التسمية الأخيرة وثيق الصلة بتطور ركاب الحاج عند سكان المدن الصحراوية.

أما التسمية الحالية "موريتانيا" فهي اصطلاح روماني معروف أصله أمازيغي: "آتمورتناغ" تمورتنّا" أرضنا. ولعله متأت من قبائل المور الشهيرة التي ناهضت الرومان والوندال وغيرهم من غزاة بلاد الأمازيغ القديمة.

ثانيا: سكان موريتانيا القدماء

تكوّنَ المجتمع الموريتاني ضمن بنية سكانية قديمة، صاغتها تحولات تاريخية معقدة لاسيما من عهد المرابطين إلى بني حسّان.

اشهر سكان البلاد هم قبائل صنهاجة التي قدمت إلى الإقليم ضمن هجرة قبائل البربر التي غادرت إفريقيا الشمالية خلال القرن الثالث المسيحي وتوجهت نحو الغرب، وبدأت احتلال الصحراء من الشمال. مع أن بدايات هذه الهجرة كانت موغلة في القدم أي قبل الميلاد. وقد دفع هؤلاء أمامهم مجموعات أخرى لها صلة قربى بأهل العصر الحجري الحديث، ودفعهم الجفاف التدريجي للبحيرات فيما بعد إلى اللجوء لضفاف البرك المائية وأودية الظهر، العليا والسفلى منها، ثم قادهم القحط إلى الانتظام في قرى أخذت نشاطاتها في التزايد مع توافد الجماعات الجديدة.

وفي عهد متأخر نسبيا، أي في حدود 2800 إلى 2000 سنة، قبل الآن أصبح البربر حاضرين في عموم الإقليم وانضافت نقوشهم الصخرية إلى نقوش (سابقيهم). وهؤلاء البربر كانوا أكثر تكيفا مع ظروف القحط الجديدة في الصحراء الكبرى من سكان القرى، وذلك بفضل النحاس ثم الحديد، وعاشوا في القرى التي بدأ سكانها في التناقص.

وقد ساهم البربر في هذا التناقص لما لهم من دور في تغيير الأوضاع ثقافيا وديموغرافيا، وفي إرغام السكان الأوائل على الهرب، مع أن هذه المسألة الأخيرة تحتاج إلى برهان. وقد جرى نقاش مطول (دكار 1976) حول حقيقة عنصر الأثيوبيين الذين ذكرهم هيرودت وأشار إلى أنهم ينتشرون في الصحراء الكبرى.

ولم يتم التوصل لحد الآن، إلى معنى عبارة "أصحاب الوجوه المحروقة" التي وصف بها المؤرخ اليوناني سكان الصحراء. بعد منتصف الألف الثاني قبل الميلاد جابت الصحراء عربات ذات عجلتين أو أربع أحيانا، تجرها الخيول غالبا والثيران نادرا.

وتطرح هذه العربات مشكلا دقيقا يناقشه المختصون منذ زمن طويل. وبالفعل فإننا لا نعرف عن هذه العربات غير تمثيلها على الصخور في 800 مكان في عموم الصحراء، ولاشيء غير ذلك، إلا الإطار الصخري. ومع ذلك فإن أصلها واضح. فالعربة ذات العجلتين المربوطة بحصانين أو أربعة، آلة حربية تقليدية معروفة حول شرقي الأبيض المتوسط منذ منتصف الألف الرابع قبل الآن، وقد استخدمها جل شعوب هذه الإقليم، والرومان بشكل مكثف وكذلك "الليبيون والكرامانت والجتول" حين تمرسوا على الخيول منذ نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، ويشير إليها كل من هيرودوت وديودور واسترابون[1].

أسلاف البربر الملثمين: رمونيي (R)MAUNY يعتقد أن اللوبيين - البربر هم أجداد الصنهاجيين الذين كانوا حاضرين في هذه المنطقة منذ القدم[2]. وأشهر أولئك اللوبيين هم شعب الكرامنت "الجرمنت".

الكرامانت "الجرمنت": هم السكان الأقدمون لفزّان (في ليبيا)، كانت لهم -على مايبدو- دولة تسيطر على الطرق التجارية الصحراوية، وكانت عاصمتهم تسمى جرمة. وهيرودت هو أول من أشار إليهم في الكتاب الرابع: "ويعيش هنا قوم كثيروا العدد يدعون الكرامانت، وعند الكرامانت توجد الثيران، ويمضي هؤلاء الكرامانت في عرباتهم ذات الخيول الأربعة..".

والجرمنت هؤلاء هم السكان الأقدمون لفزان، وكانت لهم -على مايبدو- دولة تسيطر على الطرق التجارية الصحراوية، وكانت عاصمتهم تسمى جرمة. وهيرودوت هو أول من أشار إليهم في الكتاب الرابع: "ويعيش هنا قوم كثيرو العدد يدعون الكرامانت، وعند الكرامانت توج الثيران، ويمضي هؤلاء الكرامانت في عرباتهم ذات الخيول الأربعة..".

وقد كان الكرامانت الشعب الوحيد الذي يستطيع اختراق الصحراء جنوبا قصد التبادل التجاري، أو خلال مطاردتهم للحيوانات مثل الفيلة والنعام. ويرجح البعض أن التوارك الموجودين حاليا بالصحراء، هم نسل أولئك الكرامانت الأقدمين. ثم انفصل الفرس عن العربة وأصبح مطية للجنود والكرامنت في غزوهم للصحراء، ذاك الغزو الذي استقر وتوطد مع الميلاد بفضل الجمل.

وهكذا يحدد هذا الإطار التاريخي بدقة أصل العربات الصحراوية إذ أدخلها البربر الأوائل إلى الصحراء أثناء توغلهم جنوبا. وحضور البربر الأوائل في الصحراء يصادف الألف الثالث قبل الآن، لسبب بسيط هو انعدام الخيل فيها قبل ذلك التاريخ، وقحطها بعده بحيث لم يعد للفرس بها مقام.

لقد نزل أصحاب العربات على رعاة الأبقار قبل أن يرغم المناخ هؤلاء الرعاة على النزوح صوب أطراف الصحراء، وبقي أصحاب العربات سادة الميدان وأثبتوا وجودهم بواسطة نقش العربات على جدران الكهوف والصخور، بينما أخذ عنصر جديد في الظهور وهو كتابة "تيفيناغ"، وتبقى العلاقة بين الثقافتين مجهولة. كانت العربات رمزا للشأن لدى سادة البربر القدامى، ولم تلعب دورا كبيرا في التجارة نظرا لضعفها التقني أمام المناطق صعبة المرور[3].

رغم العداء الذي استحكم بين الرومان والجرمنتيين، فقد انبثق تحالف مدهش بين الطرفين، تأسست عليه حملتان بارزتان قام بهما الرومان عبر فزان باتجاه البلدان في الجنوب. وتمت هاتان الحملتان في عهد **تراجان** حوالي سنة **100** بعد الميلاد. وتوغلت الحملة الأولى إلى بلاد السودان، ووصلت الحملة الثانية إلى "أرض **أجيسما** وهي بلاد الأثيوبيين" أي بلاد السودان جنوب الصحراء.

وربما كان السبب في تقرّب الجرمنتيين للرومان هو ظهور الجمل الذي كان سلاحا فتاكا جعل الجرمنتيين لم يعودوا بمأمن في الصحراء التي يلجؤون إليها، على نحو ما كان للقنبلة الذرية على النفسية اليابانية.

وقد وصف الجرمنتيون أنفسهم بأنهم سود نوعا ما أو حتى شديدو السواد، ويوصفون بأنهم قليلو السّواد حسب بطليموس.

كان البربر الليبيون "الموريون Maurii"، و"النوميديون Numiddians" في الساحل، و"الجيتوليون Getules" في السهول المرتفعة، والصحراويون البيض أو الخلاسيون "الهجناء" على حدود الصحراء، مثل الفاروسيين Pharusians والنجريتيين Nigrites والجرمانتيين Garamantes، و"الأثيوبيون" المنتشرون من وادي السويس إلى شط الجريد، هؤلاء جميعا كانوا شعوب إفريقيا الصغرى في عصر الرحلات الفينيقية البحرية الأولى، وقد بقوا على هذا الحال طوال العصور القديمة.

في القرن الخامس سمع هيرودوت عن مجموعتين قبليتين هما الجرمانتيون والنسامونيون، وعن طريق هؤلاء الجرمانتيين حصل الرومان على مزيد من المعلومات عن المراكز الداخلية لإفريقيا في القرون التالية، ولكن هذه التجارة لم تترك أثرا. ولكن يذكر في

المؤلفات العقيق الأحمر كإحدى السلع الصحراوية، وربما كانت هناك تجارة الرقيق، فيقال إن الجرمانتيين كانوا يتعقبون الأثيوبيين بعربات تجرها أربعة جياد[4].

وتترجم، عادة، الكلمة الإغريقية Aithiops بـ"الرجل المسفوع الوجه" أي الذي لفحته الشمس وسودته، وهناك مناقشة صريحة جدا في ندوة داكار من 19 إلى 24 يناير "كانون ثاني" 1976 عن "إفريقيا السوداء وعالم البحر المتوسط في العصور القديمة".

كان يسكن وسط الصحراء وشمال الصحراء –أساسا– عناصر بيضاء "طوال القامة، لهم ملامح البحر المتوسط.. تتصف جمجمتهم بالضخامة... الوجه طويل نوعا ما وضيق... الأطراف نحيلة"، وهي الصفات التركيبية "المورفولوجية" ذاتها "للطوارق" المحدثين... كان الحراطين في الواحات الصحراوية، رغم وجود خلاسيين بينهم، مجموعة منحدرة من "الأثيوبيين" المقيمين، كما جاء في هيرودوت، وكانوا مستعبدين للجرمانتيين الأغنياء.

يظهر الكيان الإقليمي العظيم لما يسمى بمملكة الجرمانتيين في المؤلفات اليونانية – اللاتينية، باعتباره الدولة المنظمة الوحيدة في داخل إفريقيا، جنوب الأراضي التي كانت مملوكة أولا لقرطاجة ثم لروما. وقد تصدى الجرمانتيون –كما ذكر هيرودوت مبكرا في

القرن الخامس قبل الميلاد- للتقدم الروماني على الحدود الجنوبية للمغرب، لكنهم هزموا على يدي البروقنصل كورنيليوس بالبوس "الأصغر" في السنة التاسعة عشر قبل الميلاد، ثم نهائيا أمام قائد الفرقة الإفريقية فاليريوس فستوس في سنة 69 بعد الميلاد. ويبدو أن المملكة تحولت إلى دولة على شاكلة الدول التابعة للإمبراطورية.

اليهود: الموجة الحقيقية الأولى من مهاجري اليهود التي وصلت إلى شمال إفريقيا يحتمل أنها وصلت في أواخر القرن السادس قبل المسيح، إلى سيرينايكا "برقة" (ليبيا) حيث يحتمل أنها ذابت في محيط من البربر الذين اعتنقوا اليهودية.

وفي سنة 115 م اندلعت ثورة يهودية كبيرة ضد الحكم الروماني في سيرينايكا. وبعد أن أخمدت الثورة هرب الكثير من اليهود نحو الغرب، ومن المحتمل أن البعض منهم بقي في الواحات شمالي الصحراء.

وينسب البعض شعبي الفولبي والسوننكي إلى يهود شمال إفريقيا الذين قدموا من الشمال في عهود قديمة، لكن ذلك بقي مجرد تخمين.

وقد ذكر الجغرافيون العرب وجود اليهود في بعض الحواضر الصحراوية القديمة، مثل مدينة بانكلابين (؟)، وذكر الكاتب

البرتغالي فرنندش Fernandes (1506–1507) وجود جاليات من التجار اليهود الأثرياء في مدينة ولاتة في القرن السادس عشر. وذكر البرتلي (ت-1219هـ) في فتح الشكور وجود تجار يهود يعيشون في خفارة رؤساء المدينة. وتذكر بعض الروايات المحلية، وجود "ملاّح" "حي يهودي" في مدينة وادان الحالية.

إلا أن اليهود كانوا دوما من سكان الحضر، ولم يكونوا رحّلا، ولذلك كان وجودهم في الصحراء وجودا تجاريا، مؤقتا.

البَافُور: قبائل من أسلاف صنهاجة، من المور الذين قاتلوا الرومان، ولا تزال أصول هذا الشعب غامضة إلى اليوم. فلا يوجد ذكر للبافور في المصادر العربية الوسيطية، وهم على ما يبدو سكان أسطوريون تعزو الروايات المتعلقة بتأسيس حواضر آدرار موريتانيا: تِينِيكِي، آبيّر، شنقيط، وادان، إعمار؛ هذه الحواضر قبل انتشار الإسلام؟ تُرجع إليهم الروايات الشفاهية المتداولة إعمار أزوكي قبل قضاء الأمير المرابطي أبي بكر بن عمر عليهم وعلى كلابهم المفترسة!

وقد حاول الباحث البولوني ت. لفيسكي LEWICKI (T) البحث عن أصول البَافُور، فأرجعهم إلى إحدى القبائل اللوبية "libyque" بموريتانيا القيصرية تدعى بافار "Bavare" اضطلعت في

القرن الثاني للميلاد بأدوار هامة في شمال إفريقيا[5]. والحق أن البَافُورْ هم من أسلاف صنهاجة وبربر الصحراء، وتدل على ذلك أسماؤهم البربرية التي بقيت معروفة إلى القرن 17م مثل المسمى "كاليت بن محنض" وغيره.

وتدل آثار البَافُورْ على أنهم كانوا شعبا بربريا قويا، قاتلت فصائله المحاربة مع المرابطين، بدليل أن مجموعة "تيزكّا" الحالية (وتحوي مجموعات لمتونية) المنتسبة للبافور هي إحدى قبائل المرابطين التي كانت في مقدمة جيوش لمْطة، وكانت تقاتل باستخدام "الدرق" اللمطية الشهيرة.

ويمكن التأكد من أن قبائل البَافُورْ هي أولى طلائع المرابطين التي سيطرت على آدْرَارْ ولذلك سمي الجبل عليهم "آدْرَارْ أنْ بافور" أي: "جبل البَافُورْ" ونعتقد أن ذلك تم في بداية الحركة المرابطية حدود 446هـ.

ينضاف إلى ذلك وجود شواهد تؤكد أن البَافُورْ كانوا من الظواعن كغيرهم من صنهاجة، ومن ذلك "البَافُورِيَة" وهي أضاة كبيرة في بلاد الحوض الحالية.

والحق أن الخارطة البشرية للبلاد الصحراوية آنذاك "بلاد الملثمين" أكثر تعقيدا، ولذلك فابن حوقل وصف عشرات القبائل،

بينما لم يبق في الذاكرة المرابطية، المكتوبة، سوى عدة قبائل من صنهاجة التي كانت في غرب الصحراء، وأسست دولا وممالك منها مملكة آوكارْ في جنوب شرقي موريتانيا الحالية.

بلاد الملثمين: من القبيلة إلى الدولة:

(ق1هـ/7م حتى ق5هـ/11م)

لم يكتمل التطور السياسي لبلاد الملثمين دفعة، بل كان نتيجة تجارب متعددة، استطاعت بعدها قبائل الملثمين تكوين إتحادات قبلية "كونفدرالية" أشهرها تلك التي قامت في مملكة "آوكارْ" في جنوب شرق موريتانيا الحالية، بقيادة عشائر "أنبيتا" (الأنباط) وعاصمتها أوْدَاغُسْت ومملكتها تسمى "آوكارْ". لكن ما هي أصول وتقسيمات قبائل الملثمين من صنهاجة وأقاليمها؟.

1- الملثمون أو شعب صنهاجة: أصولهم ونظامهم

عُرف صنهاجة الصحراء بالمُلَثَّمين، تمييزاً لهم عن بني عمومتهم من حاسري الرؤوس والقاطنين آنذاك في التخوم الشمالية للصحراء الكبرى. ولا يُعْرف الشيء الكثير عن أوّليّة اللثام ودلالاته، أكثر من أنه صار شعارا للقوم ومواطنهم الصحراوية.

يقول البكري (قرطبة تـ477هـ) في هذا الشأن: "... جميع قبائل الصحراء يلتزمون النقاب، وهو فوق اللثام حتى لا يبدو منه